الزانية البابلية

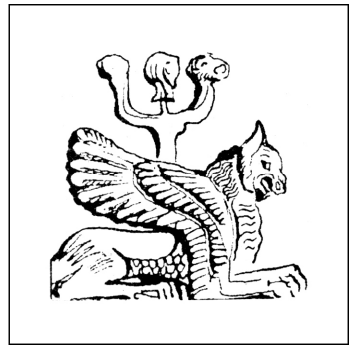

وصرخ بشـــدة بصوت عظيم قائلاً سقطت سقطت بابل العظيمة وصارت مســكناً لشــياطين ومحرساً لكل روح نجس ومحرســاً لكل طائر نجس وممقوت لأنــه من خمر غضب زناها قد شــرب جميع الأمم، وملوك الأرض زنوا معها، وتجار الأرض اســتغنوا من وفرة نعيمها.

رؤيا يوحنا[أ] ١٨: ٢.٣

الزانية البابلية، الشعب البابلي في عهد البابلة... كيف كان هو؟

إن بابل الحديثة تنتمي إلى ذلك المثال من الشعوب التي وصف كارل ماركس تركيبها الاقتصادي هكذا: هو تركز الزراعة المنتجة للاستهلاك المباشر والصناعة كالأشغال الثانوية البيتية للنساء وللبنات «الغزل والنسيج» أو الصناعة الناتجة فقط عن التطور الذاتي في فروع الإنتاج المنفردة «كالنسيج... إلخ» في المدينة التي تشمل مساحتها على الأراضي الزراعية المحيطة بها، ويعتبر الشرط الأولي للوجود المستطرد لمثل هذه الجماعات «المشاعيات» هو المحافظة على التوازن بين الأحرار الذين يشكلونها والفلاحين الذين يؤمنون الوجود المستقل لها وكذلك العمل الذاتي كشرط للوجود المستمر لملكياتها.[1]

ولكن لا يوجد بين المؤرخين - الماركسيين رأي موحد حول طبيعة التكوين الاجتماعي - الاقتصادي في الشرق القديم عامة وفي بابل خاصة. فبعضهم يعتبر أنه كان هناك نظام الرق كما في اليونان وروما[2] ولكن في أكثر مراحل تطوره تدنياً وبرأيهم أن بابل الحديثة تقترب فقط إلى مستوى تطور اليونان وروما.

أما الآخرون فيقرون بامتلاك اليونان وروما للعبيد، ويوافقون على أن الأسلوب الأسيوي للإنتاج قد ساد في الشرق القديم، ويفترضون أنه كان في مرحلة ما قبل الإقطاعي أو الإقطاعي البدائي أو ببساطة إقطاعياً.[3]

ويعتبر أنصار مفهوم امتلاك العبيد أن استثمار عمل العبيد لعب الدور الرئيس في الشرق القديم، وعلى العكس من ذلك يعتبر أيضاً أنصار الأسلوب الأسيوي في

أ- يوحنا- الرسول: الصيغة العربية للاسم يوحنان: وهو ابن زبدي من بيت صيدا في الجليل- المترجم

الإنتاج أن نظام الرق هنا لم يلق تطوراً جماعياً «شاملاً» لأن طرق الاستثمار الإقطاعي للمنتجين المباشرين هي التي سادت هنا والجدال حول طبيعة التكوين في الشرق القديم يؤدي إلى السؤال عن أشكال الاستثمار التي سادت هناك، إلا أن طبيعة التكوين الاجتماعي تحددها طبيعة العلاقات الإنتاجية التي تجد تعبيراً عنها في علاقات الملكية وليس في شكل الاستثمار.[4]

فشكل الاستثمار لا يمكن أن يكون المقياس الأساسي لتحديد التكوين وبالفعل شكل العبيد. الزنوج في النصف الأول من القرن الرابع عشر في ديكسيلاند. والهند الغربية أكثرية السكان المستقلة، ولكن نظام الرق لم يكن موجوداً بالضبط كما في إسبارطة وفيساليا «باليونان» وفي كريت حيث ساد نظام العمل العبودي الإقطاعي. ولكن تلك الشعوب لم تكن إقطاعية ومن البدهي أن الأمر ليس في امتلاك العبيد أو الأقنان ولا سيما بالنسبة للعالم القديم فإن ذلك النوع من المعطيات الإحصائية كقاعدة لم يكن موجوداً، وروما القديمة تختلف عن ديكسيلاند وإن استخدام مصطلح «امتلاك العبيد» بالنسبة لأسلوب الإنتاج أو تكوين المجتمع له معنى فقط لما يعني المجتمع بالشكل العتيق لعلاقات الملكية، وهذا المصطلح غير دقيق لأنه يستدل منه الإشارة إلى نظام الرق وإلى شكل الاستثمار وليس إلى علاقات الإنتاج الموجودة بشكل علاقات ملكية، ولهذا السبب أنا اسمي[أ] التكوين ذلك الذي انتمت إليه في القديم اليونان وروما واليهودية. لأنه هكذا سمى مؤسس المادية التاريخية كارل ماركس نفسه طريقة الإنتاج السائدة في «التكوين العتيق» بـ «الطريقة العتيقة للإنتاج، أما المجتمعات التي تنتمي إليها «المجتمعات القديمة»[5].

وكانت بابل الحديثة أيضاً مجتمعاً عتيقاً لأنه سادت فيها علاقات الملكية العتيقة، التي كتب كارل ماركس واصفاً إياه - أي المجتمع العتيق -: «عند الشعوب القديمة «كالرومان المثال الأكثر كلاسيكية لأن ذلك يظهر عندهم أكثر نقاء وبشكل أكثر وضوحاً» حصل شكل من الملكية يتضمن بذاته تناقض الملكية الحكومية للأرض والملكية الخاصة للأرض لأن الأخيرة تتوسط الأولى، أو أن الملكية الحكومية للأرض ذاتها توجد بهذا الشكل المزدوج ولذلك بالضبط يبدو مالك الأرض الخاص ساكن مدينة «ابن بلد - مدني».

إذن فالفرد هو مواطن الدولة الذي يجد تعبيره الاقتصادي في ذلك الشكل البسيط مثل الفلاح الذي هو عبارة عن ساكن مدينة»[6].

أ- يشير المؤلف إلى نفسه - المترجم

والقول برمته تماماً لا يتعلق فقط بروما بل وببابل أيضاً فالأرض في العالم القديم تعتبر الوسيلة الأساسية للإنتاج، وحددت أشكال ملكية الأرض علاقة الملكية في المجتمع بالكامل، وكانت الملكية العتيقة للأرض في بابل «الحقول العامة» «Ager Publicus» نفسها كما في روما - ملكية جماعية للمواطنين ولكن في بابل لعبت هذه الملكية الجماعية دوراً أكبر بكثير مما في العالم اليوناني - الروماني.

وكانت الزراعة المروية أساس الاقتصاد البابلي وتوقفت المحاصيل وبالتالي بقاء السكان في أحسن حالة على الري وعلى قوى الطبيعة المؤلهة، وكانت الاهتمامات الجماعية للمواطنين في بابل أكبر بالحجم وبتعدد الجوانب مما في اليونان وروما، فهي لم تتلخص فقط في الخدمة العسكرية للدفاع وتوسع ملكية أراضي الجماعات، وإنما شملت على أعمال الري التي لا تقل أهمية لحياة الجماعات، والترميم المستمر للمعابد السريعة التهدم وغيرها من المنشآت العامة، وكذلك الخدمة الدينية المعقدة جداً. وكل هذا تطلب الجهد المتواصل للقوى المشتركة للمواطنين وكذلك الموارد الكبيرة. وأدارت المعابد هذه القوى وقدمت الوسائط الضرورية. وكانت مزارع المعابد واسعة ومعقدة وجرت إليها بهذا الشكل أو ذاك جميع سكان البلاد، وتصرفت المعابد بأراض مترامية الأطراف ومقدار عظيم من القطعان والطيور، وامتلكت مزارع الأسماك وورش الحرفيين والبيوت في المدن والقوافل وعدد كبير «جموع» من العبيد. ومارست التجارة والمراباة والعمل المصرفي، ويرد إلى المعابد الهدايا الكثيرة والتبرعات والحصة الكبيرة من الغنائم الحربية والجزية من البلدان الخاضعة، وتحسب جميع الواردات والنفقات بدقة من قبل محاسبي المعابد المعينين بامتياز، ويذهب قسم من واردات المعابد للاحتياجات العامة للمواطنين مثل أعمال صيانة الري والبناء، ويصرف قسم في المعابد نفسها للخدمة الدينية وإعاشة ملاكات المعابد الكثيرة، ويوزع أيضاً قسم مهم جداً بين المواطنين على شكل إيجارات، والأشكال المتعددة لمسك أراضي المعابد والقطعان ورواتب الكهنة والأعطيات العينية المباشرة «Kurmmato - الإطعام - كورماتو» والأموال «باباسو - Pappasu - رواتب».

وفي النهاية كانت كنوز المعابد احتياطات خزينة الدولة المصونة للحالة القصوى وهكذا مثلاً: استخدم البابليون كنوز معبد إيساجيله في السنوات «٧٠٢-٦٨٩ ق.م» و «٦٥٢ ٦٤٨ق.م» لشراء مساعدة العيلاميين في زمن الحرب مع الآشوريين.

والقسم الآخر من احتياطي أرض البلاد كان ملكاً خاصاً للمواطنين ويتحمل المواطن واجبات محددة بالنسبة للجماعة ممثلة بالآلهة، ففي تصور البابلي أن المعنى الكامل لحياة الإنسان ينحصر أو يتلخص في خدمة الآلهة فالمواطن الفرد لا يمكن أن يستغني عن الجماعة التي تحميه وتخلق له ظروف البقاء، ولكي يملك القدرة على القيام بواجبه يجب عليه أن يحوز على ملكية الأرض.

وهكذا تنعكس في وعي البابليين أنفسهم علاقات الملكية السائدة بينهم والتي حددت بدورها البنيان الطبقي للمجتمع القديم «هذه - ملكية خاصة مشتركة لمواطني الدولة النشيطين المجبرين أمام العبيد على المحافظة على شكل التجمع هذا الناشئ بصورة طبيعية»[7] كتب كارل ماركس وفريدريك إنجلز: أحرار وعبيد - هاتان الطبقتان المتعاديتان في المجتمع القديم بما فيه المجتمع البابلي.

- طبقة الأحرار: هم المواطنون الذين زال التقسيم الطبقي الموجود بينهم بعد التنكيلات الدموية الآشورية بهم في الأعوام ٦٨٩ و٦٤٨ ق.م والانقلاب الزراعي وإصلاحات آشور بانيبال، وأصبح المجتمع ديمقراطياً وسمي المواطن في بابل الجديدة «مار - باني Mar - Bani» وهذا يعني «الابن الوسيم؛ الابن الأصيل» وبالمعنى المجازي «المولود حراً» وكان بين المواطنين المساواة الحقوقية. إلا أنها لم تعنِ المساواة الاجتماعية، والمواطن لم يتمتع فقط بالحقوق بل تحمل واجبات محددة، زد على ذلك أن حجم هذه أو تلك من الواجبات توقف مباشرة على كفاءته المادية وهو تمتع بكامل الأهلية القانونية والمادية ويصبح أولاده المولودون من الزواج الشرعي أو المتبنون مواطنين بابليين. وكان للمواطنين حق المشاركة في المجلس الشعبي وإشغال أي وظيفة عامة حتى وظيفة ملك بابل.

وانهار دور المجلس الشعبي «بوهرو - بيهرتو Puhru - Bihrtu» في بابل نفسها في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، وشملت المدينة - الدولة البابلية نتيجة لإصلاح آشور بانيبال كل بلاد أكاد، وتوسعت لدرجة أن الاجتماعات المنتظمة لكل مواطنيها صارت عملياً مستحيلة وتعقد المجالس الشعبية في بابل فقط في الحالات المهمة للغاية، وبدلاً من ذلك تعاظمت أهمية مجلس الشيوخ «سيبو - Sibu» أو المواطنين «mar - bani - مار - باني» الذي حل أموراً كثيرة داخله وجعلها من صلاحيات المجلس الشعبي، مثلاً المسائل المتعلقة بممتلكات المعابد وحقوق المواطنين وبعض الأمور القضائية، وفي الوقت نفسه ارتفع دور الملك والهيئات الحاكمة وقام ملك بابل الحاكم الأعلى للدولة «شارو - شاربابيلي؛ Sarru, Sarbili» إلى جانب وظيفة الكهنوت بواجب القائد الأعلى والقاضي الأعلى وتتبع له السلطة التنفيذية العليا لاقتصاد البلاد.

ويدخل تحت إدارة الملك جميع الممتلكات الخارجية لبابل - المدينة البابلية غير الداخلة في قوام المدينة - الدولة البابلية والأقاليم الأجنبية والدول الموالية.

وأدار الملك السياسة الخارجية وجمع الجزية من الدول والشعوب الخاضعة لبابل وقام بهذه الواجبات بواسطة الموظفين الذين يعينهم بنفسه.

وشكل أصحاب الرتب العليا من حاشية الملك ونواب الأقاليم وحكام المدن وجنرالات الجيش الإقطاعيون الكبار أو الأمراء «رابوتي - Rabuti» من رتبة «الرؤوس الملكية» «ريش - شاري - Res Sari» الطبقة البيروقراطية العليا والأدنى منهم كان القضاة الملكيون ومتعهدو الضرائب والموظفون الآخرون وكان للموظفين أيضاً هيئات حاكمة أخرى.

وعلاوة على المملكة البابلية تقع في إقليم بابل مدن نيبور و أوروك و أور المحافظة على نظامها الأساسي كمدن - دول وجنسيتها واستقلالها الذاتي. فهنا خلافاً لبابل أدى المجلس الشعبي وظيفته بصورة اعتيادية إلى جانب الهيئات الحاكمة ومجلس الشيوخ والموظفين، وهذه المدن كانت أعضاء في اتحاد مع بابل وخاضعة لسلطة ملك بابل، وتعزز ارتباطها مع بابل لأن عليّة المواطنين بشخص الهيئات الحاكمة والهيئات الحاكمة السابقة وأنجالهم تمتعوا إلى جانب الجنسية المحلية بحقوق المواطنين البابليين، وكان مواطنو هذه المدن والبابليون متساويين في مجال الحقوق الشخصية. وهكذا يتوضح بالخطوط العامة التنظيم السياسي للجنسية البابلية والمواطن المتمتع اسمياً بالحقوق السياسية الكاملة ما استطاع دائماً الانتفاع بها إلى حد بعيد والحديث يدور هنا قبل كل شيء على الحق بوظيفة الحاكمية «وظيفة حاكم أو قاضٍ».

فخلافاً لمنصب الموظف كانت الحاكمية حقاً وواجباً على المواطن فهي غير مأجورة أي لا يدفع عليها تعويض مالي، وإنما تعتبر تكريماً. ويتطلب القيام بوظيفة الحاكم من المواطن نفقات شخصية كبيرة ولذلك كان حق الدخول إلى الحاكمية مفتوحاً فقط للأشخاص الأكثر غنىً.

وتعتبر الخدمة العسكرية والمشاركة في الأعمال العامة وخدمة الآلهة من واجبات المواطن الأساسية التي يتطلب كل منها نفقات من المواطن، وكان مفروضاً على المواطن أن يتسلح ويعيل نفسه على حسابه أثناء الحملات، ويؤمن نفسه بالأدوات والمواد أثناء القيام بالأعمال العامة وتقديم القرابين للآلهة، ويتوقف حجم هذا هذا العبء على الكفاءة المادية للمواطن وكان هناك ارتباط طردي ما بين حقوقه وواجباته فكلما كانت الواجبات كبيرة كانت الحقوق كبيرة وبالعكس، وفي المحصلة تحولت المساواة الاسمية للمواطنين في حقيقتها إلى عدم المساواة.

ولعب حق التصرف والانتفاع بممتلكات المعابد دوراً حاسماً، وهذا الحق يعود للحكام الذين يمكن أن يكونوا فقط من أغنى أغنياء المواطنين، وهكذا مثلاً: كانت وظيفة المستشار في مدينة أوروك تعود إلى أسرة خونزو في الأعوام «٥٥٠-٥٤١ و ٥٣٧-٥٣٦ ق.م» وأمسكت عائلة دابيبي بأيديها وظيفة المدير من عام «٦١١-٦٠١ ومن عام ٥٣٩-٥٢٣ ق.م» وكاتب معبد عانا من «٦١٩-٥٧٩ ق.م» وشغلت عائلة اكيبي «لا تخلط مع عائلة اكيبي البابلية» من عام «٥٥٠ إلى ٥٤٣ ق.م» منصب مدبّر معبد عانا ولعدة سنوات على التوالي وظيفة الكاتب للمعبد ذاته، وهكذا كان في المدن الأخرى حيث احتكرت زمرة العائلات الغنية الحاكميات التي بها، وبامتيازاتها أدارت وأشرفت على ثروات المعابد وهذه الزمرة هي التي شكلت الأوليجاركية [أ] البابلية التي شكلت واردات المعابد أساس سطوتها. ووقفت

أ- الأوليجاركية = Oligarchy = حكم القلة- حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية- منظمة خاضعة لسلطة الأوليجاركية أو جماعة تمارس هذه السلطة- المترجم.

البيروقراطية الملكية الحاكمة إلى جانبها في المنافسة على الثروة والنفوذ وبخاصة العسكرية منها والتي تكونت على حساب الإنعامات الملكية والغنائم الحربية والجزية وواردات وظائفها. ولعب المتحدرون من أصل كلداني - دعامة الملوك - الكلدانيين الذين جلسوا على عرش بابل الدور القيادي ضمن المحيط الملكي حتى خضوع بابل للفرس في عام ٥٣٩ ق.م.

وكان لكل من هذه الفئات التي تكون قمة المجتمع عامة نفوذ على طبقة معينة من الرعوية المتوسطة. فالاوليجاركية المتصرفة بممتلكات المعابد تحكمت بعمالة واسعة بين أوساط سكان المدن والضواحي الذين هم بابليو الأصل في الغالب، وهذا القسم من الرعوية له إمكانية الوصول إلى استئجار أراضي المعابد والأوقاف المعبدية، والوظائف المعبدية التي تعطيها حق «الإطعام» و «الإعاشة» من المعابد أما توزيع هذه الخيرات فهو منوط بالحاكميات أي بالأوليجاركية.

وشكل العديد من مستلمي إيرادات المعابد الشريحة العليا من ملاكاتها وسموا «راب - باني - Rab - Bani» «العظام - الأكمل - الأشراف» وكان الجيش عماد الطبقة الكلدانية المسيطرة والذي كان السكان القرويون المتحدرون من أصل كلداني يشكلون القسم الأكبر منه، وكان عمادها أيضاً البيروقراطيين الصغار في الخدمة الملكية الذين من تعداد المدن سواء كانوا كلدانيين أو بابليين.

وشكلت الطبقة المتوسطة أساس هيكل الرعوية وهذا يعني الملاكين المتوسطين والصغار الذين يديرون مزارع مستقلة ويتمتعون بأهلية مادية كافية للقيام بالخدمة العسكرية والمشاركة في الأعمال العامة. وانتعشت هذه الطبقة المتوسطة نتيجة للانقلاب الزراعي وإصلاحات آشور بانيبال التي أدت إلى إعادة إنشاء ملكيات الأرض الصغيرة واندماج البابليين والكلدانيين.

ولم تكن الطبقة المتوسطة متجانسة من حيث تركيبها وبدأ الانقسام الطبقي المادي في صفوفها في القرن السابع قبل الميلاد الذي تناول الملاكين الكلدانيين قبل كل شيء هؤلاء الذين ترافقت أبللتهم «أي تحولهم إلى بابليين» بالتصفية السريعة لرواسب الشكل العيني للاقتصاد والروابط المنهاجية وانتصار الأشكال العتيقة للملكية وتطور العلاقات البضائعية - النقدية، وظهر أن إعادة بناء مثل هذه العلاقات الاجتماعية كانت مهلكة بالنسبة للكثيرين منهم وفي الوقت ذاته انفصلت من بينهم طبقة من الملاكين الأقوياء من المواطنين البابليين القادرين على الخدمة في الميليشيا الوطنية في صفوف قوات المشاة والفرسان والمركبات، وهؤلاء هم الذين أحرزوا الانتصارات لبابل في ميادين القتال في أيام نابو بلاسر ونبوخذ نصر الثاني.

وحدث تحول في مصائر الطبقات المتوسطة من المواطنين في العقود الأولى من القرن السادس قبل الميلاد تتلخص في الحروب الكبرى ونشوء إمبراطورية

نبوخذ نصر الثاني وتدفقت على بابل أنهار عريضة من أرتال الأسرى والغنائم الحربية الوفيرة والجزية من الشعوب المغلوبة.

وكان التجار البابليون فاتحي الطرق إلى جميع أنحاء العالم. وابتداء عهد الازدهار البابلي بهرج لم يسبق له مثيل في البورصة والمضاربات، ونمت الثروات مثل الفطر وادخرت الأوليجاركية القوى، ولكن خلف هذه الواجهة من الرفاهية انتشرت مأساة الطبقات المتوسطة من المواطنين، فهي التي حملت على أكتافها جميع الأعباء السياسية للدولة الكبيرة وأُرهِقت وعانت ملكياتها من الاجتياحات العسكرية، وتحويل المالكين إلى الخدمة العسكرية الذين خسر الكثيرون منهم رؤوسهم في ميدان القتال استشهدوا والبقية عادوا مشوهين، وخلال الوقت الذي كانوا هم فيه يحاربون غرقت ملكياتهم بالديون حيث رُهِنت وأعيد رهنها للمرابين.

وساعد عاملان إضافيان قد اطلعنا عليهما في ذلك الوقت أيضاً على إفلاس ملكيات الأرض الصغيرة وهما: إعادة إنشاء منظومات الري التي أدت إلى انقلاب في هندسة الزراعة وطرق إدارة الاقتصاد الزراعي وتقسيم الحصص بين الأبناء الورثة.

وكلا العاملين يشهدان على أن النظام العتيق لامتلاك الأرض قد وضع حداً لنفسه وتحول إلى عائق للتطور الاقتصادي للجميع، ويظهر هذا بشكل حاد في مجال الملكية الخاصة للأرض.

وفي الأسر الغنية حصل أيضاً تقسيم للأرض بين الورثة مما أدى إلى نشوء عائق أمام تعبئة ملكية الأرض وتزايد ملكيات الأرض الكبيرة. إلا أن الأغنياء قسموا أكثر بكثير ليس الأرض وإنما قيمة إيجارها وبهذا تلخص واحداً من أهم مزايا المزرعة الكبيرة بالنسبة للصغيرة. فالمالكون الصغار الذين يزرعون أراضيهم شخصياً بواسطة عيالهم وعدد قليل من العبيد مضطرون طوعاً أو كرهاً إلى تقسيم حصصهم متحملين بأنفسهم خسارة مزارعهم التي لا تعوض.

والملاكون الكبار أيضاً كقاعدة لا يديرون مزارعهم وإنما يؤجرونها، ولذلك كان تقسيم الإيجارات بالنسبة للضيع «العقارات» كوحدات اقتصادية لا تنقسم وكمية إيراداتها لا تتدنى بالنسبة إليهم تعطي ربحاً أكبر بكثير من تقسيم الأرض.

والمستأجرون من جهتهم يلجؤون في الوقت ذاته لاستئجار عدة قطع صغيرة متجاورة تعود إلى مالكين متعددين بحيث تدغم بهذا الشكل هذه القطع الصغيرة من الأرض في عقار واحد ويصبح أصحابها مالكين مشتركين يتقاسمون الإيجار فيما بينهم.

وحدثت في سيكولوجيا «نفسية» الرعوية البابلية تغيرات حادة تساعد على فهمها الحادثة التالية: في عام ٥٦٩ ق.م عندما بدأ نبوخذ نصر الثاني بالاستعداد للحملة التي ستتم في السنة التالية على مصر ولكي يحصل المزارع بعل - شوم - اشكون من منطقة شاخارين ضاحية بابل على الفضة لكي يستأجر بديلاً عنه للخدمة العسكرية استدان بكفالة أرضه وعبدين من إدين - مردوك المعروف عندنا سابقاً نحو ٣ منّات «١.٥١٥ كغ» من الفضة متعهداً بإيفاء الدين من حساب محصول التمر وافتدى بعل - شوم - أشكون نفسه من الخدمة العسكرية ولكنه لم يستطع أن يفي الدين وأفلس بعد عام ونصف.[9]

فبعل - شوم - أشكون وكثيرون من مواطنيه فضلوا الإفلاس على الخدمة العسكرية هؤلاء الذين أكلوا حتى الشبع من الانتصارات والفتوحات التي لم يروا منها شيئاً سوى الموت والتشويه والإفلاس أيضاً.

هكذا تدبر وتصرف أبناء وأحفاد هؤلاء الذين منذ نصف قرن مضى من دون أن يبخلوا بحياتهم اقتحموا خنادق وأسوار نينوى العظيمة وصدوا هجمات المصريين العنيفة وأوصلوا الآشوريين إلى اليأس الكامل في حران وحاربوا في قتال دموي جسماً لجسم مع جنود الفرعون في شوارع كركميش[أ].

إن عهد الازدهار رفع عالياً أهمية الثروة المالية مما أدى إلى تطورات جوهرية في بنيان الطبقات المتوسطة للرعوية «من المواطنين» ففي ذلك الوقت قلل العديد من ملاكي الأرض الصغار العائشين على حساب المحاصيل من الأرض من ازدياد عدد الملاك - المدينيين مالكي العقارات والبيوت المربحة والحانات والورش وكذلك المرابين الذين انحصرت الثروة عندهم بالأموال فاشتروا الأراضي والبيوت والأوقاف والعبيد بالجملة ولم يحسبوا إيراداتهم بمقادير المحاصيل وإنما بمقادير الإيجارات والفوائد والأرباح، وبالضبط تنامت ثروة إدين مردوك وعائلة اكيبي في سنوات الستينيات من القرن «السادس ق.م» وفي هذا الوقت عمت روح الطمع في أوساط المجتمع البابلي بشكل لا مثيل له. والميل إلى الحياة الطفيلية واللاتفريقية[ب] السياسية.

ولعل أكثر هذه الميول وضوحاً هو ما ظهر أيضاً بالنسبة إلى الواجبات الوطنية الأساسية، فكل «سعى لأن يفدي نفسه منها باستئجار البديل عنه أو بدفع المال حتى الخدمة في المعابد ألقاها مالكو الرواتب الوقفية على أكتاف المستأجرين والعبيد، ويمكن أن نحكم على الفرق بين نفسية هذه الطبقات المتوسطة الجديدة

أ- جرابلس حالياً - المترجم

ب- Indifferntism= M =اللاتغريقية = اللامبالاة- المترجم.

ونفسية المواطنين العاديين المستمرين بالعيش كما كان في الماضي بالحادثة التالية المسجلة في وثائق عائلة اكيبي:

في ٤ نيسان من عام ٥٢٣ ق.م تبادل نادينو وزوجته إنتسابتوم من سكان مدينة كيش الملكية مع إيتي - مردوك - بالات رأس عائلة اكيبي حيث سلمت الزوجة قطعة أرض في المدينة مساحتها ٢٨٨ م٢ مقابل قطعة أرض زراعية مساحتها ١.٣٣ هكتار قرب بابل وأربع إماء. وبعد ذلك باعا الإماء في ١ أيار عام ٥٢٣ ق.م وأبقيا الأرض لهما.[10]

وأقبل إيتي - مردوك - بالات على التبادل عن طيب خاطر لأن قطعة الأرض في المدينة أغلى من قطعة الأرض الزراعية والإماء. وفي الوقت نفسه اعتبرت الزوجة أيضاً أن التبادل ملائم: فبدلاً من قطعة أرض وبيت متهدم لا يستطيعان إعادة بنائه ولا يقدم لهما أي إيرادات استلما قطعة الأرض وكسبا نقداً من بيع الإماء وصارا من جديد ملاكين مستقلين.

ولكن لماذا لجأ الزوجان إلى المبادلة وباعا بيتهما المتهدم ليشتريا مباشرة أرضاً بالنقود التي يحصلان عليها بتلك الطريقة؟ والجواب بسيط فهذه العملية يمكن أن يقوم بها ببساطة ايتي - مردوك - بالات الذي يملك عشرات العقارات والبيوت والمئات من العبيد والأموال الكثيرة وليس زوجان معدمان لا يملكان وسيلة للعيش ولا يستطيعان المضاربة وعلاوة على ذلك لعبت النظرة العميقة المتأصلة للملكية الدور المهم بذلك.

فالبابليون المتأدبون بروح التقليد لا يستطيعون التسليم وليس مؤقتاً بفقدان الأرض دون الانتقاص من شرفهم ولذلك فضلا المبادلة حتى ولو بخسارة.

وإلى الأدنى من الطبقات المتوسطة في السلم الاجتماعي وقفت الطبقة العاملة القديمة، الدهماء، المواطنون الفقراء، المحرومون من الأرض والعبيد والبيوت، وصارت الحقوق المدنية بالنسبة لهم شيئاً تافهاً لا معنى له. وكانوا منبوذين من صفوف الطبقة المسيطرة وفي عداد المستَغَلين، وإلى هنا انتمى المستأجَرون وعمال المياومة والزبائن المحيطون بالمواطنين الأغنياء وعاملون وكلاء وحانوتيون وطفيليون

ويحاول البعض منهم بكل قواه أن يبقى ولو بالظاهر منتمياً إلى الرعوية وبعضهم لا يبالي بأي شيء وينحدرون ببساطة إلى القاع ويلتحقون بصفوف المرتزقة والجناة.

وتزايد عدد هؤلاء العناصر المنفصلين عن طبقتهم مع زيادة الانقسام الطبقي المادي للرعوية «للمواطنين» وكانوا نتاجاً لتفسخ الوحدة الجماعية الوطنية والبادرة المخيفة اللأزمة الناشبة في النظام القديم.

وقاومت طبقة المواطنين الأحرار طبقة العبيد فالعبد محروم من الحرية وكان عليه أن يخدم الإنسان الآخر ولا يتمتع بالحقوق والواجبات الوطنية، ولهذا السبب وحق الملكية أيضاً والعبد نفسه وكل ما يملكه عبارة عن ملك للسيد.

فسيد العبيد يمكن أن يكون فرداً مستقلاً أو جماعة كاملة أو الدولة. إلا أن مفهوم العبودية «بالبابلية: اردوتو Ardutv» في المجتمع القديم يختلف عن المفهوم المعاصر، وفهم القدماء العبودية ليس بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكن في شكل من تبعية الإنسان للإنسان، وكان العبيد بالنسبة للبابليين هم أقنان المعابد والأسرى والشعوب الخاضعة «المقهورة» حتى العمال المأجورين الأحرار والحرفيين، وأناس العمل «الفكري» العاملين بالأجرة اعتبروهم كالعبيد لأنهم يعملون لا لأنفسهم وإنما للناس الآخرين، وهكذا فهموا العبودية في اليونان وروما أيضاً حيث اعُتِبر هلوت «أقنان إسبارطة القديمة» وبينست «معدمو» فيساليا حلفاء أثينا في عهد بيركليس وجميع التابعين لملك فارس العظيم عبيداً وكان قوام العبيد في المجتمع القديم مختلفاً جداً وغير متجانس.

وفي المجتمع القديم المتطور - وبابل أصبحت هكذا في عهد البلبلة - لا يمكن أن يكون المواطن عبداً في وطنه، وكانت وظيفة العبد ممنوعة على المواطن في بابل منذ عام ١٧٩٠ ق.م ففي شريعة حمورابي[11] فقط الغرباء يمكن أن يكونوا عبيداً، وبالتالي كان بين الأحرار والعبيد فرق اجتماعي وإثني[أ]، وفي الحقيقة حدثت في بابل استثناءات متفرقة لهذه القاعدة، فالقراء صاروا يعرفون أنه في زمن حصار بابل في الأعوام «٦٥٠-٦٤٨ ق.م» ونيبور في عام «٦٢٧ ق.م» أن الناس باعوا أولادهم وأنفسهم عبيداً لكي ينجوا من الموت جوعاً، ومثل هذه الحالة معروفة في سني الجوع أيضاً ولا سيما في الأعوام «٥٩٦ ق.م و٥٤٤ ق.م»[12].

وفي الأكثرية الساحقة من الحالات لا يصبح الناس عبيداً عن طيبة خاطر وإنما نتيجة للضعف وزيادة على ذلك الاضطرار الاقتصادي.

وتعتبر الحرب والسلب المصادر الرئيسة للرق وترافقت جميع الحروب التي قامت بها بابل بالأسر واستعباد الأسرى، وفي الحقيقة بهذا ابتدأ تاريخ بابل الحديثة، ففي عام ٦٨٩ ق.م كان البابليون المغلوبون أنفسهم عبيداً، وبعد ٧٠-٨٠ عاماً استعبدوا مستعبديهم الآشوريين ثم وقع في الأسر البابلي: الاوراتيون والمانيون والمصريون والسوريون والفينيقيون واليهود والكيليكيون والعرب وغيرهم... وبعد

أ- عرقي؛ سلالي - المترجم

كل حملة إلى ما وراء النهر - وتلك الحملات من سنة ٦٠٥ إلى ٥٨٦ ق.م كانت تجري في كل عام تقريباً - كان نبوخذ نصر الثاني يسوق إلى بابل جموع الألوف الجديدة من العبيد.

وكان المصدر الآخر للعبيد هو تجارة الرقيق «النخاسة» باستيراد العبيد من وراء الحدود، وكانت بابل المركز الأضخم لتجارة الرقيق في الشرق الأدنى، وعلاوة على ذلك سافر البابليون أنفسهم من أجل العبيد إلى الخارج وهكذا مثلاً اشترت عائلة اكيبي في إيران الأمة ايلا ميتيانوك والأمة كاندارتيكو.

وكان المصدر الأساس للعبيد داخل البلاد هو تكاثر العبيد فكثير من العبيد كان عندهم زوجات وأولاد وبلغ عدد الإماء اللواتي لهن أولاد دون أزواج أكثر من ذلك، وفي ٨ أيلول من عام ٥٠٨ ق.م اقتسم الأخوة اكيبي ملكيتهم الخاصة ومن بين الـ ٩٨ عبداً الذين اقتسموهم كان ٥٣ عبداً أفراداً من ضمن أسر «آباء وأولادهم» و١٧ أمة لهن أولاد و٢٨ عبداً منفرداً.[13]

وكانت الفائدة المرتفعة جداً للعبيد الموروثين نموذجية للمجتمع القديم المتطور ولا تقل عنها تميزاً الأكثرية الطفيفة لعدد الإماء على عدد العبيد الذكور[أ] بالنسبة له.

وبابل الجديدة هي عبارة عن مجتمع مالكي عبيد وراثيين وعبيد موروثين. وتوقف وضع العبيد في المجتمع البابلي على: أي صنف من العبيد هو ينتمي ومن يملكه وعلى أشكال الاستثمار التي يخضع لها وعلى ما هي طبيعة ذاته وكذلك سيده.

وانقسم جميع العبيد البابليين إلى عبيد عموميين وعبيد تابعين للأشخاص العاديين، ويتلخص التقسم القانوني فيما بينهم بأن العبيد العموميين كقاعدة كانوا لا يصادرون - لم يتمتعوا لا بحق البيع ولا بالتحرر - بينما عبيد الملكيات الخاصة يباعون ويشترون ويهدون ويحررون.

وشكّل عبيد المعابد الكتلة الأساسية للعبيد العموميين وإلى جانبهم كان العبيد الملكيون يشكلون طبقة خاصة وهذا يعني عبيداً لكل الدولة.

ولعب ما يسمونهم الـ «تيركو - Shirku - المكرسون» المهدون للإله الدور الأساسي بين عبيد المعابد فهم، كالعبيد الملكيين، مجندون على الأغلب من الأسرى البابليين الذين يوزعونهم على الملكيات المعبدية والملكية بمثابة فلاحين وحرفيين... الخ

أ- لقد تتبعت «يقول المؤلف عن نفسه/ ١٦٢ عقد شراء بابلي مثبت فيها بيع ٢٣٢ عبداً من ضمنهم ١٠٣ رجال «نحو ٤٤ %» و١٢٩ امرأة «نحو ٥٦ %» ففي مستهل تكون المجتمع القديم امتلكوا العبيد لأنه ساد فيه نظام الرق الأبوي المنزلي. أما في عهد الازدهار عندما حدثت السياسة العدوانية الواسعة وكان سعر العبيد رخيصاً «- العبيد الرجال»- وتجاوزت بابل الحديثة هذه المرحلة كان المجتمع البابلي قد تشبع للغاية بالعبيد بحيث صار توالد الرعية واحداً من المصادر الرئيسية لإعادة إنتاجها وتعويضها.

وجزء منهم يوزع بين الجنود والضباط المشاركين بالحملة أو يباعون في أسواق العبيد للأشخاص العاديين.

وحفظ في أرشيفات المعابد العديد من الوثائق عن تسليم الأسرى المؤونة واللباس من مستودعات المعابد. ويصادف هنا أسماء كل من اليهود والعسقلانيين والكيليكيين والليديين والمصريين والعرب وغيرهم من أسرى بابل. والكثير منهم ولا سيما والفلاحين كانوا يدبرون أمورهم ويعيلون أنفسهم ومن ناحية أوضاعهم تشابهوا مع الأقنان.

وهكذا مثلاً: كان بالقرب من بابل في عام ٥٣٨ ق.م عدة قرى للأسرى المصريين الذين يعملون في زراعة أراضي المعابد وشكلت هذه القرى جماعات لها مجالسها وتخضع لسلطات المعابد[14]، وعاشت غالبية الأسرى اليهود في ظروف مشابهة وكانت قراهم موجودة في أماكن مختلفة من بابل ومن ضمنها القرى على قناة كابارو «نهر خوفار» بالقرب من نيبور وبالمناسبة حيث عاش النبي حزقيال[أ] وحالاً بعد السبي كتب النبي أرميا من أورشليم ناصحاً مواطنيه بالتخلي عن الأمل الذي لا يمكن أن يتحقق بالتحرر السريع هكذا «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل. ابنوا بيوتاً وأسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها.

خذوا نساء ولدوا بنين وبنات. وخذوا لبنيكم نساءً وأعطوا بناتكم لرجال فيلدن بنين وبنات وأكثروا هنا ولا تقلقوا. واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام»[15].

واستاء الأسرى اليهود بشدة من كلمات النبي ولكنهم كانوا مجبرين طوعاً أو كرها على اتباع نصائحه، وبنى الأسرى اليهود سوية مع العبيد البابليين الآخرين أسوار وقصور المدينة، فهم الذين قولبوا الطين «اللبن» الذي سووه في التنانير «مفردها تنور» معفرين ليلاً نهاراً بالتراب مستنيرين بوميض برق السماء في الليل، فهنا ولدت أسطورة «الأتون الملتهب» الذي طرح فيه الملك نبوخذ نصر الفتيان اليهود لرفضهم السجود للأصنام البابلية حيث خرجوا منه سالمين معافين بفضل حماية الرب يهوه.[16]

وإلى جانب الأسرى كان في صفوف المكرسين «المنذورين» عدد غير قليل من البابليين الفقراء المدفوعين بالعوز حتى اليأس الذين يدخلون بأنفسهم طوعاً في عداد المكرسين وهكذا في ٢٧ آذار من عام ٥٤٤ ق.م «أعلنت بانات - إنين ابنة نرجال - أدين في أوروك في المجلس الشعبي أمام نابو - شارو - اوتسور الرأس

أ- حزقيال: اسم عبري معناه «الله يقوي» وهو أحد الأنبياء الكبار ابن بوزي ولد وكبر ونشأ في فلسطين وربما في أورشليم، وسبي من يهوذا في عام ٥٩٧ ق.م مع يهوياكين ثماني سنوات بعد نفي دانيال... المترجم.

الملكي[أ] الوصي على معبد آنا وكابي - إيلاني - شارو - اوتسور حاكم معبد آنا وزيري مدبر آنا ابن ابنِ نجل اكيبي: «توفي زوجي نابو - زير - أوكين والجوع حل في البلاد وأنا أَسِمُ «أضع وسماً» بالنجم نذرت أبنائي الصغار شمش - أريبو وشمش - ليو للإلهة بعليت الأوروكية، نعم سيكونون مكرسين للإلهة بعليت الأوروكية ماداموا أحياء» واستمع نابو - شارو - اوتسور وحاكم ومدبر ووصي معبد آنا إلى خطاب بانات - إنين ابنة نرجال - إدين وأعطوا شمس - أريبو وشمش - ليو «إعاشة» من معبد آنا وصار شمش - اريبو وشمش - ليو مكرسين للإلهة بعليت الأوروكية، وحضر هذا تابيا مستشار أوروك ابن نابو - نادين - شوم نجل خونزو «يلي ذلك أسماء الشهود والكاتب والتاريخ» وكثير من أتقياء البابليين يهدون عبيدهم منذورين بمثابة هبة / تقدمه/ للآلهة ويصبح أبناء المنذورين منذورين أيضاً ويقع في هذه الفئة الإنسان وورثته ويبقون فيها للأبد.[17]

أسرى يتناولون الطعام

موسيقيون أسرى

وكان المنذورون لا يجوز بيعهم أو تحريرهم ولا يجوز بأي طريقة كانت انتزاعهم من الإله الذي هم مكرسون له، ومعظم المكرسين يوسمون بعلامة هذا أو ذاك من الآلهة وليس كلهم، ولم يكونوا جميعاً من جماهير العبيد الفاقدي الشخصية الخاملين /تنابل/ فالأحرار البابليون الذين يصبحون مكرسين يحافظون وفي بعض الأحيان على وضعهم في المجتمع.

أ- الرأس الملكي: رتبة عسكرية عليا في الجيش البابلي تعادل رتبة الجنرال- المترجم.

ويقع في أوساط المكرسين حتى الأشخاص الذين يحملون لقباً أميرياً ومالكو عبيد أغنياء وملاكون ورجال أعمال ومستأجرو أراضي معبدية وأراضي خاصة وبيوتاً.

فجيميلو ابن إنين - شوم - ابني المكرس للإلهة بعليت الأوروكية أشرف على قطعان معبد آنا لسنوات عديدة على التوالي وسرق بصورة مستمرة مع أخيه ورعاتهم أبقار وأغنام المعبد.

وعلاوة على ذلك أخذ الرشوة كرهاً بالابتزاز والتهديد وأخلى سبيل العبيد الفارين لقاء الدارهم، وبكلمة واحدة «اغتنى كيفما استطاع بأي طريقة قدر عليها» وعرفت رئاسة الدير بذلك وسكتت لأنها هي نفسها سرقت الذهب والفضة والأدوات بلا ضمير من المعبد واستولت على أراضي وبيوت وإيرادات المعبد، ولكن جيميلو تواقح للدرجة التي كان مجيروه «حُماته» الكبار مجبرين على تسليمه للقضاء في ٢١ آب عام ٥٣٨ ق.م وحاكمت جيميلو جميع الهيئات الحاكمة في أوروك وكتب الكتاب الأربعة دون تعديل المحضر، وشكل قرار المحكمة نصاً ضخماً بـ ١٤٨ سطراً موزعة على أربعة أعمدة والأدلة كانت واضحة للغاية، حتى أن جيميلو لم يحاول إنكار بعضاً من سرقاته وفرضت عليه غرامة بـ ٩٢ بقرة و ٣٠٢ خروف و ١ مَن و ١٠ شواقل «٥٩٠غ» من الفضة. إلا أن جيميلو بدلاً من أن يدفع الغرامة رفع استئنافاً إلى كوبارو والمرزبان[أ] الفارسي واستمر هو نفسه بالسرقة وتوعد المرزبان بالقصاص الصارم وأجبر آباء المدينة الأوروكيون على المثول أمام المحكمة في بابل ويفضحون جيميلو فَرُفِضَتْ الأدلة وابقي جيميلو في بابل حتى نيسان عام ٥٣٤ ق.م رهن الاعتقال. ولكن الأصدقاء لم يتركوه في المصيبة وسلم أحدهم المدعو نابو - تاريتس اللحام في معبد إيساجيله في بابل إلى من يهمه الأمر رشوة بـ ٥ من «٢.٥٢٥ لغ» من الفضة وعاد جيميلو إلى أوروك حيث لاقوه كالبطل تقريباً، وهو الآن يتولى أيضاً أراضي المعبد إلى جانب القطعان وابتدأ يسرق الشعير والتمر بعشرات الألوف من الأطنان وفي النهاية غاص في أعماله المشبوهة وأدرك أنه من الأفضل له أن يختفي ولكنه سرق مسبقاً وثائق المعبد لجمع إيجارات التمور وأخفاها عند أقاربه وبسبب ذلك لم يستطع المعبد أن يجمع الإيجارات، وفي ٣ أيلول من عام ٥٢٠ ق.م استطاعت السلطة بصعوبة أن تعثر على هذه الوثائق، أما جيميلو فقد اختفى، نعم إنهم لم يبحثوا عنه في الحقيقة![18]

هكذا كان عبيد الطبقة المسيطرة وهكذا كانت أخلاق وعادات هيئات الأوليجاركية البابلية التي تتحكم بالمعابد - الملكية الجماعية للمواطنين.

أ- المرزبان لقب يطلق على حكام الولايات الفرس القدماء وجمعه مرازبة /أي والي- ولاة/ المترجم

وكان المكرسون العاديون بطبيعة الحال في وضع آخر كلياً فهم يعملون في مزارع المعابد كفلاحين ورعاة دواجن وصيادي أسماك ومربي ماشية وحرفيين وخادمي معبد ومراكبيين[أ]... الخ وكثيراً ما سلمهم المعبد بالأجرة.

ومن المكرسين يختارون القواسين[ب] والحرس للقيام بخدمة الشرطة وأعمال المعبد المكرسين بإعطائهم المؤن من الشعير والتمر والنبيذ والخردل والثوم والصوف والملابس الجاهزة والنقود ويشترك المكرسون دوماً في أعمال الري والبناء، ويؤجر فلاحو المعبد - المكرسون مع الأرض التي يزرعونها وليس كل المكرسين كانوا مقتنعين بمصيرهم. فإذا انخرط بعض الأحرار من ذاتهم في صفوفهم فإنهم قاموا مراراً كثيرة بالهرب وحاولوا بطرق أخرى الحصول على الحرية فيقبضون عليهم ويعاقبونهم ويعودون إلى الحالة السابقة.

وشكل العبيد التابعون للأشخاص العاديين الفئة الأساسية الثانية من العبيد البابليين[ت] ولا يوجد عن تعدادهم حتى ولو معطيات تقريبية ويمكن التأكد فقط من أن كل عائلة ميسورة قليلاً كان عندها عبيد. وامتلك العبيد أيضاً كثيراً من المستأجرين والمزارعين والبستانيين ويعتبر عدم امتلاك العبيد علامة على الفقر.

وتعطي الأرقام التالية بعض التصور عن مقادير الملكيات الخاصة للعبيد:

اكيش ابن كودورو نجل نور - سين والد الغني أدين مردوك امتلك في أواخر أيامه عبداً واحداً. وكان عند الزوجين المنقطعي الذرية أردي - غولي ودامكا من خوسار - كالامي أربعة عبيد ونابو - اريشي - ابن تابنيا نجل آخو - باني كان مضطراً بعد سنتين إلى التنازل لأسرة أكيبي التي خفضت له ديونه عن ١٣ من عبيده.

وامتلكت أسرة أكيبي لا أقل من ٣٠٠ عبد واستلم الابن الأصغر نابو - كوتسورشو عند اقتسام الميراث من أخيه الأكبر بمثابة الثلث العائد له ١١٨ عبداً

أ- المراكبي= رجل يجر المركب ضد التيار- المترجم.

ب- القواس= الحارس الشخصي والتسمية جاءت من رامي القوس- المترجم.

ت- قلما سمي هؤلاء العبيد «عبيداً» «اردو- Ardu» وإنما كانوا يسمونهم عادة «أقنان» «كواللو- Lqallu [ألقن (بكسر القاف) هو عبد الأرض- رقيق يعمل على أرض سيد إقطاعي وتنتقل ملكيته من هذا السيد إلى أي سيد آخر قد تؤول ملكية تلك الأرض إليه- المترجم] ومؤنثه «كوالاتو Qallatu بمعنى شخص تابع صغير وسمي العبيد أحياناً «غلام» «ساهيرتو- Sahirtu» والجارية «آمتو Amtu» و«خادمة» «اشتابيرو Aslapiru» ومجموع العبد من كلا الجنسين سموهم لاموتانو- Latanu , Lamutanu «المقيمون من حول» خدم أو ببساطة آميلوتو- Amelutu «ناس» والعبيد الذين يعودون إلى مالك واحد سموهم بالمصطلح نيتشي- بيتي Niee- Biti «ناس البيت» «باللاتينية عائلة Famlia» والعبد المولود في بيت مالك العبد - مار- بوتي «ابن البيت» «باللاتينية فيرنا- Verna»..

ولكن أسرة اكيبي وبعل أوتسورو كانوا ينتمون إلى قمة الطبقات المتوسطة من المواطنين وبالمقياس البابلي كانوا يعتبرون من متوسطي الحال.

وكان عند الأغنياء أيضاً من تعداد الأوليجاركيين والوجهاء الملكيين عبيد يقدرون بالألوف واعتبر العبد في المجتمعات القديمة ومن ضمنها البابلي شيئاً «أداة ناطقة» وفي الوقت ذاته عنصر ضروري مركب للأسرة[أ].

واستأجرت ربة المنزل البابلية بابا - شارات بعد وفاة زوجها تاب - تيسيللي - مردوك ابن نابو - أبلو - أدين نجل سين - ايلي في ٤ نيسان من عام ٥٤٢ ق.م المدعو إيساجيل - بوديو لكي يبني ضريحاً لها ولأولادها.[19] وتسيرا بابلية أخرى ابنة نابو - باني - زيري نجل الحداد التقطت من الشارع طفلة صغيرة. وأطلقت عليها اسم شيبيتا وطبعت قدميها على أرضية بيتها الطينية علامة على أنها تنتمي قطعاً لبيت العائلة وعندما راهقت شيبيتا أعلنتها تسيرا وزوجها في ربيع عام ٥٢٩ ق.م أمام المواطنين عبدة[20] لها مراعاة للتقليد القديم في ضم العبيد إلى الأسرة.

وكان العبيد عند مالكي العبيد الصغار بوضع الأعضاء الصغار في الأسرة يعملون مع أسيادهم. بينما استخدم مالكو العبيد الكبار العبيد خلافاً لذلك، فهم احتفظوا أيضاً بالعبيد في بيوتهم بمثابة الخدم ولكنهم اعتبروهم كالمقتنيات فهكذا مثلاً: آيتي - مردوك - بالات رأس عائلة اكيبي المعروف عندنا سابقاً اشترى له نسجاً على منواله[ب] «عبداً - نماماً» (ملقن) «الذي يسمى عند الرومان واضع الأسماء أو مخترعها» ودخل في خدمته وكانت مهمته تذكير وتلقين السيد ما كان يرغب باستذكاره، وفي الوقت نفسه اشترى عبداً قوي البنية حارساً شخصياً لكي يقوم بحراسة السيد في الشارع ويطرد من البيت أولئك الذين يأمره السيد بذلك.[21]

إن الاستثمار الوحشي للعبيد حتى الإنهاك (استخدم المؤلف كلمة الاستهلاك: المترجم) في بابل خرج عن الموضة ويمكن أن يتجرأ على مثل هذه الفخامة فقط الملوك والمعابد الذين توهب العبيد لهم.

وفي المجتمع الذي يتحدد وضع الإنسان فيه بما يملك استطاعوا جيداً اعتبار أنه يمكن التعامل مع العبيد بالطبع كالتعامل مع البهائم، ولكن من الحماقة نسيان أنه إنسان والأحمق من ذلك مضايقته بالعصا «الوقوف فوقه بالعصا» فالعبد يكلف السيد مالاً ويمكن دوماً بيعه من أجل المال حتى في تلك الحالة التي يولد فيها العبيد في بيت السيد أو يصل إليه في قوام الصداق أو بالميراث، وحقيقة الأمر لا تتغير ففي كل الأوقات دفع الأسلاف المال عنه أو له.

أ- «تتألف الأسرة الكاملة من العبيد والأحرار... القسم الأول والأصغر من جوهر الأسرة: السيد والعبد، الزوج والزوجة الأب والأولاد» المواطن «بطبيعته مخصص له زوجة وعبد»- الأولى تعطي استمرار الحياة أما الثاني فيخدم الأسرة «ارسطوطاليس- السياسة «١، ١ «٢» و ٥- ٦ ٢ «٣»، ١.

ب- أي كفاءته - المترجم

ومورست تجارة العبيد بعدة طرق وكان أبسطها شراء العبد مباشرة من المالك بالثمن الذي يوافق عليه. ولكن المالك يتمنع كثيراً عن بيع العبيد عندئذٍ يسعى الشاري لإيقاعه في الديون والاستيلاء على العبد الذي يروق له بالرهن وبعد ذلك كلياً سداداً للدين.

وأخيراً كان من الممكن شراء العبيد من سوق الرقيق من تاجر العبيد المحترف.

وكان بين النخاسين الكثير من المحتالين القادرين على أن يدسوا للشاري المتفرج منذهلاً على السلع لجهاز العرس: العبد المصاب بداء عضال والتستر على عيوبه والعبد الميال إلى الهرب والعبد العنيد... الخ

ويدخل المشترون شروطاً في سند الشراء «عقد التمليك» تتضمن لهم كفالة البائع وتعطيهم إمكانية رفع الدعوى عليه في حالة ألغش إلا أن هذا لا ينفذ حتى أكثر مالكي العبيد خبرة من الوقوع في الخطأ.

اشترى إدين - مردوك ابن اكيشي نجل نون - سين في ٢١ كانون ثاني من عام ٥٤٤ ق.م بـ ١ من «٥٠٥ غ» من الفضة العبد - نابو - ناتانو من تاجر العبيد أرابي وكفل العبد إلى جانب أرابي مالكه السابق إلا أنه بعد مضي بعض الوقت هرب العبد ومن الواضح أن إدين - مردوك ليس بلا سبب شك أن الهرب كان مدبراً من تاجر العبيد نفسه بنية بيع العبيد مرة أخرى، وقدم إلى المحكمة في ٧ آذار عام ٥٤٤ ق.م وقرر القاضي: - إذا وجد العبد عند أرابي فيتوجب عليه أن يدفع إلى أدين - مردوك غرامة لأنه المسبب بالهرب.[22]

- وفي عام ٥٤٦ ق.م كدّ قضاه الملك نابونيد حتى الضنى بدعوى العبد باريكي - إيلي المروية فهم ابتدؤوا بسؤاله من يكون هو. فأجاب العبد.

- أنا - مواطن - من دون أن يرف له جفن.

- أثبت لنا جنسيتك - طلب القضاة.

لم تكن تلك الإثباتات عند باريكي - واعترف: لقد هربت مرتين من بيت سيدي وتواريت لأيام كثيرة قال وهو خائف «أنا - مواطن» وليس عندي جنسية: أنا عبد اشترتني سيدتي غاغي بالفضة.

إلا أن القضاة لم يصدقوا باريكي - إيلي مرة أخرى. غير أنهم بعد أن بذلوا الجهود الكثيرة وبحثوا في العدد الكبير من الوثائق فهموا سيرة حياته الحقيقية.

لم يكن باريكي - إيلي وأمه آباتاشو عبدين أبداً لربة المنزل غاغي من خورساغ - كالامي ففي عام ٥٧٠ ق.م رهنت غاغي باريكي - إيلي لقاء ٢٨ شاقل «٢٣٥.٦ غ» من الفضة عند آخي - نوري ابن نابو - نادين - آخي ولكن ظهر أن العبد سيئ السلوك إلى حد كبير لدرجة أن المالك الجديد أسرع بإعادته إلى سيدته السابقة، عندئذٍ تشاورت غاغي وزوجها بير وابن عم زوجها زيريا وباعوا العبد في ١١ تموز عام ٥٦٦ ق.م في مزاد علني ب ٢٣ شاقل «١٩٣.٦ غ» من الفضة وأخذ

منهم الشاري نابو - زير - أوكين ابن بعل - أدين نجل كاهن الآلهة أيا كفالة كي لا يهرب العبد ولكن باريكي - إيلي هرب وظل في الهرب نحو ٤ سنوات وكانت غاغي مجبرة على إعادة المال إلى الشاري وقبول العبد من جديد عندما قبضوا عليه.[23]

وفي ١ نيسان عام ٥٦٢ ق.م استدانت هي وزوجها وأخو زوجها من كورباني - مردوك ابن بعل - ناصر نجل ماغناتا ٢٠.٨ شاقل «١٨٠ غ» من الفضة وأعطوه العبدة اباتشو وابنها باريكي - أبلى رهناً فأخذ صاحب الدين ابا تشواليه للخدمة ولكنه تخلى عن ابنها واضطرت غاغي إلى استرداد باريكي - ايلي مرة أخرى وأخيراً وجدت وسيلة للتخلص من العبد وأعطته من ضمن صداق ابنتها نوبتا واحتملت تلك الكثير من المساوئ إلى ما يفوق الحد وسارعت إلى بيعه لابنها زابابا - أدين وزوجها أدين.

إلا إنه ظهر أن اليد الرجالية ليس في وسعها ضبط العبد المتمرد ولما ماتت غاغي ونوبتا سارع زابابا - أدين ووالده أدين إلى بيع باريكي - إيلي في بابل.

وصار الشاب ايتي - مردوك - بالات وريث بيت اكيبي مالك العبد «السعيد» الذي لما قام بالخطوة الأولى في ميدان العمل تحت إشراف أبيه احتفل باريكي - إيلي بمناسبة وصوله إلى بابل بهروب جديد. وسرعان ما تبين أن عائلة آخي - نور التي كان مرهوناً عندها منذ عام ٥٧٠ ق.م تبحث عنه وعلى ما يبدو أنه اقترف شيئاً ما هناك.

وبعد تحريات مطولة قبض رجل التحري بعل - ريمانين على باريكي - إيلي ومثل هذا أما القضاة وأقر القاضي بأن باريكي - إيلي عبد وأعطاه لعائلة آخي - نووي التي قام آيتي مردوك - بالات بشرائه منها.

ولا يقل عناء عائلة أكيبي الذي جلبه شراء العبد أينا - كاتي - بعل - شاكين وفي هذه المرة وقع في الشراك الخبير جداً نابو - آخي - أدين والد إيني - مردوك - بالات.

عاش اينا - كاتي - بعل - شاكين في مدينة سيبار المجيدة «الجميلة» حيث مارس سيده سيليم - بعل أعمالاً مشبوهة على أراضي المعبد المحلي إبابارا وسلك العبد على خطا سيده وفي عام ٥٥٠ ق.م تعهد بالاشتراك مع محتالين اثنين مثله هو نفسه إينا - كاتي - بعل شاكين بنقل الثوم الذي جمعه المواطن بعل - ابن من أراضي المعبد إلى المستودع الملكي وبعد أن استلم الثوم بكفالة سيده اختفى العبد وخلانه بلا أثر. وبالمصادفة وجده بعل - ابن فقط بعد ثماني سنوات وأحضر إلى المحكمة التي كشف فيها عن تفاصيل ممتعة تليق بريشة الفنان ليساج.

وعلى ما يبدو أنه في عام ٥٥٥ ق.م أيضاً بعد مضي خمسة أعوام على أعمال إينا كاتي - بعل - شاكين المذكورة باعه سيليم بعل لأسرة إكيبي واشترى السادة الجدد بواسطة وكيل مزارعهم وحتى أنهم لم يبالوا بما يقوم به: فالعبد يدفع الأتاوة بدقة والسيد يبقى مرتاحاً. وبهذا الشكل في عام ٥٥٠ ق.م غش إينا - كاتي - بعل - شاكين

وسيده السابق سيليم - بعل عمداً بعل - إبنِ المسؤول عنهما الآن. وفي عام ٥٤٢ ق.م كان على إيتي - مردوك - بالات أن يصبح مالكاً للعبد بعد وفاة الأب وكان عليه أيضاً أن يتخالص مع بعل - ابن وأما فيما يخص إينا - كاتي - بعل - شاكين فعند منحدر الحياة هدأ وصار صاحب أرض في قرية عائلة اكيبي على القناة الجديدة بالقرب من بابل حيث حوله إيتي مردوك - بالات في عام ٥٢٣ ق.م إلى ملكية أخيه الأصغر نرجال - إيتير.[24]

وحفظت في أرشيف عائلة سين - إيلي وثيقة يتيمة تعتبر مهمة جداً لنا وهي معروفة باسم الأكذوبة الآشورية تحت رمز «شيفرة» Vas 27.

وهذه ترجمتها: «حتى مرور المدة المحددة على نابو - شوم - أوتسور ابن نابو - كوزوب - إيلاني نجل ماغنات أن يدفع إلى بابون ابنة اكيشي زوجة تابي ١ من و٢٢ شاقل «٦٩٠ غ» من الفضة وهذه عليها أن تعيد وتسلم نابو - شوم - أوتسور سند الشراء الذي أخذت بموجبه من نابو - أخ - أدين لقاء القيمة المحددة (العبيد - نابو - بوليت ونابو - شارو - أوتسور وعلى نابو - شوم - أوتسور حتى المدة المحددة أن يُسلَّم إلى بابون العبيد الميتين والهاربين نابو - موشاليم والفضة وبعد المدة المحددة يصبح العبيد ملكاً إلى بابون «أسماء اثنين من الشهود والكاتب» بابل في ١٨ تاشريت السنة الثامنة والثلاثين لنبوخذ نصر ملك بابل «٢٣ تشرين أول عام ٥٦٧ ق.م

وبابون معروفة عندنا ربة المنزل بابا - شارات، أما نابو - شوم - اوتسور فهو تاجر العبيد المحترف «النخاس» اشترت منه بابون العبيد الميتين والهاربين.

من الصعب القول لماذا احتاجت إليهم ولكن الحقيقة تبقى حقيقة فبافل إيفانوفيتش تشيتشيكوف لم يكن شخصاً غريب الأطوار - والبابلية بابون تاجرت «بأرواح الموتى» بالضبط قبل أن تخرج إلى العالم أشعار ن. ف. غوغول الخالدة بـ ٢٤٠٩ سنوات.

وكان سعر العبيد يتوقف على أعمارهم ومهنتهم ونوعيتهم الشخصية وشروط البيع وعلى تأرجح قيمة السلعة الحية وهكذا مثلاً كان العبد بعل - تسولي - شيمي عند الرهن بشروط الـ أنتي خريس يساوي ٣٠ شاقل «٢٥٢.٥ غ» من الفضة وعند البيع بـ ٥٢ شاقل «٤٣٧.٦» من الفضة.[25]

والعبد شا - بعل - ليتشي كان من نصيبه وحياته الشاقة أنه بدل سبعة مالكين وباعوه أربع مرات وتغير سعره حسب عمره، ففي عام ٥٩٣ ق.م دفعوا من أجله عندما كان شاباً ٥٩ شاقلاً «٤٩٧ غ» وفي عام ٥٨٦ ق.م عندما كان في أوج قوته ٦٢ شاقلاً «٥٢٢ غ وفي عام ٥٧٦ ق.م نظراً لتقدمه بالسن ٥١ شاقلاً «٤٢٩ غ» وفي عام ٥٤٨ ق.م وبعد أن شاخ فقط ٢٢ شاقلاً «١٨٥ غ» من الفضة.[26]

ولم يرتفع سعر العبيد تدريجياً ففي النصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد. كان من الممكن شراء العبد الرجل البالغ بـ ٥٠-٦٠ شاقل (٤٢١-٥٠٥ غ) والعبدة بـ ٣٠-٥٠ شاقل «٤٢١-٢٥٢.٥ غ» والطفل بـ ١٥-٢٠ شاقل «١٢٦-١٦٨غ» من

الفضة وفي العشرينيات في عهد قمبيز ساوى العبد البالغ من ٦٠-١٢٠ شاقل «٢.٥٠٥-٤.١٠١٠غ» من الفضة وهذا يعني أنه تزايد بالمقارنة مع منتصف القرن السادس من مرتين إلى ثلاث مرات مما أدى إلى هبوط سعر الفضة ولكن ليس إلى تقليل تدفق العبيد إلى البلاد من الخارج.

وهكذا كان من الضروري شراء العبد ولكن شراء العبد لم يعن بعد تكوين الإنتاج، ولأجل ذلك تطلب من مالك العبيد نفقات إضافية «إن ذاك الذي اشترى عبداً ما زال ليس بمقدوره استثمار العبد، فهذه الإمكانية تعطيه فقط في المستقبل رأس المال الذي يساعده على امتلاك العبيد»[27] هكذا كتب ك. ماركس.

واستوعب ملاك العبيد البابليون هذه الدقة في الاقتصاد السياسي عملياً وعلمتهم الحياة الحساب وعلموا الحساب واكتشفوا أن العمل الرقيقي بالإجبار يتسم بالإنتاجية المنخفضة جداً، وأنهم في الماضي القديم «غابر الزمان» وجدوا طرقاً لرفع اقتصادية عمل العبيد وأحرزت طرق أخرى مشابهة انتشارا واسعاً ولكن فقط في عهد البلبلة.

وكانت عملية تسليم العبيد للإيجار واحدة من تلك الطرق واستأجروهم بمثابة خدم للقيام بأعمال السخرة ولعمليات الحفر وللعمل بالعقارات والورشات والسفن... الخ وكانت مهل وشروط الاستئجار مختلفة وعادة لا يدفع المستأجر للسيد عن العبد فقط «الأتاوة» «ماندا تو - Mandattu» بل يأخذ على عاتقه تأمين العبد بالطعام واللباس والمسكن.

وكان من المربح تأجير العبيد المؤهلين ولذلك كثيراً ما سلم مالكو العبيد للحرفيين للتعلم وقد تحدثنا عن ذلك سابقاً.

إن أنواع تأجير العبيد زد على ذلك التأجير الإجباري هي عبارة عن قرض مقابل الرهن بشروط الانتي خريس فالعبد يعوض بعمله للدائن فوائد القرض الذي حصل عليه السيد.

وغير تسليم العبد للإيجار من طبيعة عمله فكان العبد بالسابق «أداة ناطقة».

ولكن مالك العبيد والمستأجر حصلاً على فوائد محددة وأعفي مالك العبيد من نفقات استخدام وإعاشة العبد، وهذا يعني وفر من رأس المال الأساسي ورأس المال الحر فهو أنفق ماله فقط على شراء العبد وحصل من دون نفقات تالية على فائدة بشكل أتاوة تشكل نحو ٢٠ % سنوياً من قيمة العبد بالسنة، وهكذا بحيث يعوض العبد عن نفسه كاملاً بَعدَ خمس سنوات ويحصل السيد فيما بعد على أرباح إضافية.

ووفر المستأجر أيضاً رأس المال الضروري لشراء العبد الذي يشكل الحصة الضخمة من رأس المال الأساسي وبهذا الشكل يكون قد حصل على إمكانية الإنتاج بأقل. رأس مال ابتدائي من دون أن ينفق مالاً لشراء العبد، وأوحى تسليم العبيد بالإيجار لمالكي العبيد القيام بالخطوة التالية: صار العبيد يسلمون أنفسهم للإيجار

بأنفسهم وهكذا ظهرت القنانه «أقنان الأرض» الشكل الأوسع انتشارا لاستثمار مالكي العبيد الأغنياء للعبيد في عهد البلبلة وتتلاقى مع الاقنان في أكثر مجالات الحياة تنوعاً في بابل الحديثة، فكانوا عبيداً حرفيين وعبيداً مزارعين وبستانيين يستأجرون الأرض من سادتهم أو الأشخاص الآخرين، وكذلك أصحاب حانات وعبيداً رجال أعمال... الخ تحدثنا عنهم سابقاً أكثر من مرة وكثيراً ما افتتح للقن مجال واسع من النشاط واعتبره السيد متصرفاً[أ] «بيكولي - Pikuli» ويستلم منه حصة من الإيرادات.

في شهر كانون الأول من عام ٥٧٥ ق.م أخذ تابيا ابن نابو - أبلو - ادين نجل سين - إيلي لقاء ٣٦.٥ شاقل «٣٠٧غ» من الفضة رهناً بشروط الانتي خريس من عمته كوناباتي ابنة بعل - لي نجل سين - إيلي عبدها أرابي ولم تستطع كوناباتي إيفاء الدين، وصار العبد ملكاً إلى تابيا. وكان في البداية بستانياً في عقارات تابيا يدفع له الأتاوة وريع التمور واغتنى تدريجياً.

وفي النهاية استأجر أرابي في شهر أيار سنة ٥٥١ ق.م من سيده ولمدة ١٠ سنوات كل العقارات متعهداً أن يزرع له أشجار النخيل، وكان عليه أن يفلح قسماً من الأرض لحساب أتاوته والباقي للضمان «شيتسينو» الذي سيدفعه السيد لعماله، لأن أرابي اغتنى لدرجة أنه احتفظ بعمال زراعيين ومستأجرين من الباطن[ب] «مستأجرين من مستأجر» وتوجب على تابيا أن يقدم لعبده معاول حديدية جديدة و٥ مَن «٢.٢٥ كغ» من الصوف لأن أرابي يدير في الوقت نفسه ورشة لصناعة الاردية «الشملات» ويقدم لسيده قسماً من الإنتاج.[28]

أعطى مردوك - ناصر - ابلي رأس عائلة إكيبي لعبده نابو - أيالوا والرجل الحر أوبارو ١٠٠ كورو «١٥١٥٦ ليتر» من التمر و ٥٠ كورو «٧٥٧٨ ليتر» من الشعير و ٦٠ دناً فارغاً لمدة ثلاث سنوات، وكذلك أعطاهم مجاناً محلاً للحانة في ضاحية بابل بيت - خاخورّو ومقابل ذلك على نابو - أيالو اوبارو أن يدفعا له سنوياً ٢ مَن «١.١٠ كغ من الفضة ويعوضا بعد ثلاث سنوات رأس المال المدفوع كلياً.[29]

وفي استثمار الرقيق الإقطاعي توقف العبد عن إن يكون «أداة ناطقة» في عملية الإنتاج وتصرف بملكية مستقلة مما غير جذرياً من موقفه تجاه العمل، وأصبح عبداً قانونياً ولكنه في الواقع لم يكن كذلك بالمفهوم الاقتصادي، وهذه الحقيقة أقرها

أ- بيكولي Pikuli= يوضع الملك المقدم هنا من السيد تحت تصرف العبد.

ب- Sublease= المستأجر من مستأجر- مستأجر من الباطن- المترجم.

القانون البابلي: أصبح العبد شخصاً قانونيا ودخل في علاقات متفق عليها مع أشخاص متعددين بما في ذلك السيد الخاص.

أما السيد بإطلاقه العبد مقابل الجزية لم يوفر فقط في رأس المال الأساسي وإنما في رأس المال الحر أيضاً وتلقى أيضاً أرباحاً أعلى بكثير من العبد المسلم بالأجرة.

وعمل الرق الإقطاعي درجة «مرحلة» للشكل التالي الأعلى لاستثمار العبيد في العالم القديم - Hd hgujdr، وكانت البواعث لإطلاق العبيد إلى الحرية «تحريرهم» متعددة ولكن الاقتصادية هي الغالبة وعلى الأغلب أطلق إلى الحرية العبيد الأغنياء الذين دفعوا لسيدهم فكاكاً لأنفسهم أعلى بكثير من السعر الذي اشتروهم به، وعلاوة على ذلك كثيراً ما تعهد المعتق بإعالة سيده السابق أو أنه دفع مبلغاً محدداً ومقابل مخالفة هذه التعهدات يستطيع السيد إعادته إلى العبودية.

وبهذا الشكل يتخلص مالك العبيد بإطلاق العبد إلى الحرية ليس فقط من جميع النفقات لإعاشة واستخدام العبد، بل يستعيد بدهاء أمواله المصروفة لشرائه، وعلاوة على ذلك يحصل مالك العبيد من دون أي نفقات وجهود على الأرباح من العبد المعتق تفوق بكثير على التي تعطيها الطرق الأخرى لاستثمار العبيد.

إن أرقاء الأرض والمعتقين يشكلون مع عبيد المعابد والعبيد الملكيين معاً الطبقة العليا من العبيد، ويمكن تسمية الكثيرين منهم مع الكثير من التحفظات مستثمرين فهم أنفسهم استثمروا العبيد والأحرار وكانوا أغنى بكثير من البابليين المواطنين... والكتلة الأساسية من العبيد عاشت بالطبع ليس كهذه القمة.

ومالكو العبيد لم يتحلوا بالإنسانية قطعاً ففي المجتمع حيث ساد العمل الذهبي لم يبق مكان للعاطفة ولكن هذا الصنم أجبر مالكي العبيد أيضاً على تجنب القسوة غير الضرورية بالنسبة للعبيد، ولهذا السبب كان العبيد التابعون للأشخاص العاديين في وضع أفضل عامة بالمقارنة مع عبيد المعابد والعبيد الملكيين.

ولم تعرف بابل تلك المعارك الطبقية مثل انتفاضات صقلية في الأعوام «١٣٧-١٣٢ ق.م» و «١٠٤-١٠١ ق.م» أو انتفاضة إسبارطة في الأعوام «٧٤-٧١ ق.م» التي هزت روما. ولكن في المجتمع البابلي في القرن السادس قبل الميلاد كان «الرجال» «سابي - Sapi» كما سمي العاملون في بابل بغض النظر سواء أكانوا هم عبيداً أو مكرسين «منذرون» أو أسرى أو خدماً أحراراً غير هادئين حقيقية وأزعجوا باستمرار أصحاب الأمر والنهي. وكثيراً ما تتحدث الأعمال الكتابية في ذلك الزمن على أن «الرجال» ابتعدوا عن الأعمال من الجوع لأنهم كانوا بحال ليسوا فيها أحسن من الموتى لأن ظروف عملهم شاقة بصورة مستحيلة ومعدلات الإنتاج خارجة عن طاقة الإنسان، وفي تلك الكتابات أيضاً شكاوى لا تنتهي من أن المزارعين «ناس كسالى» وأن «الرجال» يعملون بصورة سيئة ويهربون عند أول فرصة سانحة.

ويأخذ الهروب في بعض الأحيان طابعاً جماعياً، وهرب العبيد من سادتهم وهربوا من القنانة النذرية وهرب حتى خدم المعابد، وتطلع الهاربون إلى المدينة ولا سيما إلى بابل حيث كان من السهل الاختفاء بين أكثر الناس. وتشكلت منهم عصابات اللصوص والمجرمين وعملت الحانات المشبوهة التي يديرها العبيد أوكاراً لهم. أما سادة العبيد أصحاب الحانات اتخذوا مظهراً وكأنه لا شيء، ولكنهم كانوا يعرفون ويتعامون.

والخطورة الأهم بكثير من الهرب والجريمة بالنسبة لأصحاب الأمر والنهي شكلتها المؤامرات في وسط اليائسين وحالة العصيان المكشوف وتزايد عدد تلك الظواهر باستمرار.

ففي ٢٦ كانون الأول من عام ٥٤٠ ق.م استمعت السلطة الحاكمة والمجلس الشعبي في أوروك إلى حادثة المنذور ابن - اشتارا ابن آميل - نان الذي استل خنجره من نطاقه وانقض من بوابة معبد آنا الكبيرة على الوصي الملكي ولكنه جرد من سلاحه في الوقت المناسب. وعرض خنجره كدليل مادي على السلطات والمجلس.[30]

واستنطق القيم المذكور إيلي - ريماني بحضور ١٠ مواطنين في ٧ أيلول عام ٥٣٢ ق.م العبد إسينايو وسمى ذلك العبد أسماء ٤٠ مشاركاً في الإجرام من عصابته وكان من بينهم ٢٤ مواطناً و٦ عبيد «من ضمنهم اسينايو» و٥ حرفيين و ٦ من عبيد المعابد.[31]

بماذا اتهم هؤلاء الأشخاص؟ - ليس من المعروف! ولكن الحديث جرى بالتحديد ليس ببساطة عن السرقة ما دام الذي نظر في القضية واحداً من كبار وجهاء أوروك، زد على ذلك أن التكوين الاجتماعي للمجموعة لا يمكن أن لا يوحي للسلطات بأكثر المخاطر جدية وهي أن الأحرار اتحدوا مع العبيد.

وفي ٣ كانون الثاني عام ٥٢٩ ق.م جرى التحقيق في المجلس الشعبي في أوروك بالقضية التي استفزت كل المدينة: اندلع عصيان في سجن المدينة حيث قام السجناء بقيادة راعي المعبد نارجيي والمنذور نيدنتي وشمش - بعل - كاكابي بعمل نقب في الجدار وانطلقوا إلى الحرية.

وألقي القبض على نارجيي وشمش بعل - كاكابي وقدموا إلى المجلس مع السلاسل التي نزعوها عنهم ولكن الآخرين تمكنوا من الهرب.[32]

وفي عام ٥٢٧ ق.م بحث المجلس الشعبي والهيئات الحاكمة في أوروك قضية الرفض الجماعي لصيادي الأسماك لدفع ألعشر لمعبد آنا عن صيد السمك من القنوات في إقليم أوروك. حيث ضرب الصيادون ضرباً مبرحاً وكبلوا بالسلاسل موظفي المعبد.

ولم تخاطر السلطات باللجوء إلى التنكيل وفضلت الاتفاق مع الصيادين ملبية إدعاءاتهم[33] وهكذا بدت «الاضطرابات الزراعية» العادية في أوروك نفسها:

- أعلم المشرف على الأعمال بعل - أوباليت سلطات المعبد بالخبر المؤسف: بأن المنذورين الذين أرسلتهم إليه قد استولوا على مخزونات اللباس والمؤن وضربوا العشّار وهربوا من قرية أيبولو وملاحقتهم - أمر ميئوس منه - لا أمل فيه.[34]

- اشتكى المدير كينينايا إلى سلطات معبد آنا «أن موشاليم - مردوك جاء في ٣ دو أوزو[أ] ورماني أرضاً وطردني خارج الحقل معلناً: من هو رئيس كهنة آنا؟ هذا الحقل ملكي، نعم، الإله نابو يعرف أنهم «يعنى سلطات آنا» اغتصبوا مني صومعة الحبوب الملكية واغتصبوا مني كل ما أملك. من أعطى هذا الحق للإلهة بعليت الأوروكية؟ رئيس الكهنة يقوم بجميع الوسائل لكي يظلمني» وبعد ذلك جنى ونقل العنب وأنا أقول له «رئيس الكهنة يرى لماذا أنت تجني العنب من دون إذن رئيس الكهنة؟ عندئذ ضربني ضرباً مبرحاً وكسر أحد أضلاعي ورماني بإهمال في الشارع ليوم كامل وليلة»[35].

كان المجتمع البابلي في القرن السادس قبل الميلاد مجتمعاً مريضاً واسم مرضه أزمة الأسلوب القديم في الإنتاج التي ظهرت أعراضها الرئيسة بتفسخ وانحطاط الأشكال القديمة للملكية، وانهيار مساواة المواطنين الذين يؤمنون مقومات حياتهم بصورة مستقلة، والعمل الذاتي للمواطنين كشرط لبناء ملكياتهم تحت تأثير العلاقات المادية - البضائعية والتطبق «التوزع الطبقي» داخل الجنسية.

وتركزت ملكية وسائط الإنتاج أكثر فأكثر في أيدي الأوساط العليا من المواطنين أما الطبقة المتوسطة التي هي القاعدة الاجتماعية للنظام القديم انحطت وتآكلت.

وتعاظمت ملكية الأرض وملكية العبيد على حساب إعادة توزيع الملكية داخل المجتمع وعلى حساب إفلاس الملاكين الصغار وعلى حساب احتكار ملكيات المعابد في أيدي العدد المتناقص أكثر فأكثر من شراذم الأغنياء وانحدار الفقراء الأحرار في الوقت ذاته إلى القاع مكملين صفوف عبيد المعابد الذين أصبحوا في عداد المستثمرَين وزالت الحدود الطبقية بين الفقراء الأحرار والعبيد، وانحلال طبقة العبيد أيضاً الذين ظهر من بينهم الناس الأغنياء والذين تحولوا من مستثمَرين إلى مستثمِرين، والحقيقة إن هذه العملية كانت أقل بروزاً من تفسخ الجنسية ولكن هذا كله سمح لنا بالاطلاع على أن التبدل المميز للتناقض في المجتمع القديم السليم بين الأحرار والعبيد أدى إلى التناقض النموذجي بين الذين يملكون والذين لا يملكون في المجتمع القديم في عهد البلبلة.

أ- أسم أحد الشهور من السنة.

والعَرضَ المنذر الآخر للأزمة المقبلة هو عبارة عن نمو الطفيلية واللاتفريقية السياسية المرتبطة معها.

وعاش الأغنياء البابليون على حساب الإيجارات من الأرض والبيوت والأتاوات والجزية من العبيد والفوائد من رأس المال المسلف بالربى وإيرادات المعابد المكونة ليس بجهودهم فهم انفصلوا عن الإنتاج وأصبحوا طفيليين، وتزايدت الهوة باستمرار بينهم وبين الجماهير العاملة بقدر تزايد إفلاس الطبقات المتوسطة، وساد على اتجاه واحد الرفاهية الخيالية والفساد، وعلى الاتجاه الآخر - الحياة نصف الجائعة والأعمال الشاقة. هكذا بدأ المجتمع البابلي في منتصف القرن السادس قبل الميلاد وهكذا كانت نتيجة ازدهاره.

ومع ما يبدو من تفسخ الأوساط الحاكمة إلا أن بعض ممثليها توصلوا إلى إدراك أن الازدهار لا يمكن أن يستمر إلى ما لا نهاية، وأن ما سيعقبه من انهيار لا يرحم وهذا ما أجبرهم على البحث عن طرق لتعزيز وتمديد سيادتها الطبيعية، وكان المخرج الوحيد هو إقامة الديكتاتورية القادرة على سحق المقاومة المتعاظمة للجماهير العاملة.

وفهم هذا كلتا الجماعتين من الأوساط الحاكمة البابلية - الأوليجاركية والعسكريتارية الكلدانية ولكنهما فهمتا الديكتاتورية بشكل مختلف.

فالأوليجاركية لم تعترض على السلطة القوية ولكن على شرط أن تخدمها هذه السلطة وتحمي امتيازاتها، وهذا يعني أنها أرادت أن توجد الذي يوحد الديكتاتورية وامتيازاتها.

ورأت العسكريتارية الكلدانية في الديكتاتورية واسطة لإحراز الموقع المتفوق في الدولة وإزاحة الأوليجاركية من الارتزاق بالسلطة. وتوصلت إلى أن الذي يجلس على العرش البابلي يجب أن يكون حتماً كلدانياً، وعاد الصراع على هذه الأرض بين كل من التجمعين اللذين يشكلان جوهر الأزمة السياسية التي عمت بابل بعد موت الملك نبوخذ نصر الثاني في عام ٥٦٢ ق.م.